على يد قوم من الاراميين ليس من اليونان ولذلك لا تجد من الكتابات اليونانيّة النصرانيّة الّا النزر القليل

فان تخطّينا الآن الى ذكر تاريخ لبنان في القرن السابع وجدنا هذا الجبل قد دخل في طور جديد بظهور المرّدة والموارنة الذين لعبوا دورًا مهمًّا في طوارئه المختلفة. وكان قبلهم لم يُفلّح منهُ الّا ساحلهُ ووسوطهُ بعد تجرّدها من غاباتها امّا لبنان الاعلى والجرد منهُ فانهُ لم يزل قفرًا خاليًا من السكّان حتى أوى اليه الموارنة فاضحى معمورًا حافلًا بالقطين كبقيّة نواحي لبنان. وسنبيّن ان شاء الله قريبًا كيف تركّبت الامّة المارونيّة الّا اننا نقدّم على هذا البحث فصلًا آخر في شعوب لبنان القديمة وسكّانهِ الاوّلين

(ستأتي البقيّة)

مآثر العراقيين ودواثر البابليين السابقين

لجناب الدكتور الفاضل نابليون ماربي البنداديّ

(المشرق) هذه المقالة كملحق لما كتبهُ حضرة الدكتور البارع في المشرق العام الماضي تحت عنوان « ما ورثهُ اهل العراق عن الاشوريين والكلدانيين » (المشرق ٦ : ٩٣٨ ; ٩٨٦ ; ١٠١٧ ; ١٠٧٢)

لو نُشرَ البابليون من قبورهم وتأمّلوا ما هم عليهِ اليوم خلفاؤهم العراقيّون من العوائد والصنائع والفنون الخ. لقالوا « من أشبه اباه فما ظلم وما انتم أيها الاحياء الّا ابناؤنا ولذا يحقّ لنا تلك البلاد عملًا بالسُنّة العامّة ان الاشياء تُتبع من الوكيل اذا عاد الاصيل ». فممّا أشبه بهِ المتأخرون الاقدمين الاضرار اي تعدُّد الزوجات فقد كان الاشوريون والبابليون جارين على هذه العادة وفقًا لشريعتهم وهي اليوم سنّة اهل العراق اللهمّ الّا النصارى منهم

وكان يحقّ على الوالد في ذلك الزمان عند تزويجهِ بنتهُ ان يجهّزها باثاث البيت والحوائج الخ. وفي متحف لوفر الفرنسي عاديّة مشهورة باسم حجر الموسيو ميشو فيها مسطور ما اعطاه والدٌ لابنتهِ من الجهاز والظاهر انهُ كان من الواجب على العروس ان تأخذ معها سند جهازها مختومًا بيد والدها كي لا ينكر عليها زوجها ما حملتهُ اليهِ من الاثاث والفرش (١

(١) راجع تاريخ لونرمان Lenormant : *Histoire ancienne des peuples de l'Orient*. T. V, pp. 84 et 98.

واذا رُزقت المرأة ولداً حملتهُ على ظهرها او على صدرها وذهبت به لقضاء حاجاتها في السوق او في البيت. وفي متاحف اوربة جملة عاديات تمثل نساء حاملات اولادهنَّ على اظهرهنَّ كما تراهنَّ اليوم في شوارع المدن (١

وكان الاشوريون والبابليون اذا عمدوا للاكل وضعوا الصينية على كرسي وقعدوا حواليها متربعين مثل العرب وقد طوَوا ارجلهم تحتهم ومنهم من كان يأكل على مائدة عالية ويجلس على كرسي مثل الافرنج وهو يتناول الاكل بالمشكّ والملعقة (٢

وفي غير ساعات الاكل اذا جالسوا صديقاً تربعوا أريكةَ الواحد بازاء الثاني حتى ان ملكهم ذاته يقعد هذه القعدة في قصره الملكي في خلوته مع اهل بيته. وفي المتحف البريطاني صورة ملكة اشورية هي وصلة من حيطان قصر الملك اشور بانيبال ذاته جالساً على اريكة مرتفقاً مرافق ناعمة ماسكاً بيده الواحدة زهرة ورافعاً بيده الثانية كاساً ليشرب والملكة جالسة بازائه على كرسي ذي مسندٍ للظهر وارجلها واقعة على مائدة وماسكة بيمينها مروحة وبشمالها كاساً لتشرب وفي اذنيها اقراطٌ كبيرة وفي رقبتها طوق من الحجارة الكريمة وحواليها الجواري مهتمّات بخدمتها بنشاط لا مزيد عليه

وكان من عوائدهم ايضاً ان يبنوا الدار ثلاثة اقسام: قسم يختص بسكنى الحرَم وقسم موقوف للرجال والقسم الثالث مرصود للعبيد والجواري والمطبخ. هذا ما تحققهُ العلماء المستشرقون عند حفرهم قصر نينوس (٣

وكانت النساء لا يترلنَ الى المطبخ لمساعدة الخدام او لمناظرتهم بل يرخينَ لافكارهنَّ عنان التيه والتخيُّلات الفارغة كما هي العادة اليوم. قال الموسيو پرو (Perrot): «لو اصلحتُ مثلاً قصر نينوس اصلاحاً تاماً على ما هو مخطوطاً لتمكَّنتُ اي عائلة شرقية كانت من السكنى فيه بدون ان تُلحق بالبناء تغييراً البتة. وكانت البغضة بين النساء القديمات لا تطفأ نارها الّا بالتفريق بينهنَّ. وكُنَّ يتسترنَ كل التستر ولا يسمحنَ لاي غريبٍ كان ان ينظرهنَّ ولا يجوز لهنَّ الخروج الى ظاهر البيت وكانت اعين ازواجهنَّ تتبع آثارهنَّ اينما توجَّهنَ وكيفما تكلَّمنَ ان فوجئنَ بمكالمة شخصٍ او عبدٍ مكالمة يُشكُّ فيها فالقتل يكون جزاؤها الوحيد. واذا عزمت احدى النساء على الآثار

(١ راجع الكتاب نفسهُ Idem T. V, p. 98

(٢ Idem T. V, p. 124

(٣ Idem T. V, p. 28

من ضرتها يسهل عليها ذلك اذ تجد دائماً في قربها من يُنقذ مبتغاها على الفور (١

ومن عوائدهم ايضاً الاجتماع والتنزُّه عند ابواب سور المدينة وعند ابواب الدار اذ كان القدماء يبتنون وراء باب الدار او وراء باب المدينة مصطبات (وبلسان العرقيين دكّات واحدتها دكّة) للجلوس عليها اذا قصدوا محادثة صديق او التنزه للتفريج عن القلب وعليه فكانوا يذهبون كل يوم بعد انتهائهم من شغلهم الى سور المدينة ويتربّعون على مصطبات ابوابه حيث يلتقون زرافاتٍ يقضون هناك ساعاتٍ متواليةٍ في استنشاق النسيم او لمماطاة الاشغال او للنوم او للاستخبار عن ماجريات ذلك النهار

هذا وقد سردنا بعضاً من عوائد البابليين والاشوريين المهمة نقلاً عن كتب المؤرخين وكلُّ عراقي في عصرنا هذا بعد تصفُّحه ما كتبناهُ لا يتمالك ان يعترف بوجود تلك العوائد وهي جارية مجراها بدون ان يطرأ عليها ادنى تغيير. فلا حاجة اذن الى تكرارها واثباتها بانها لم تزل دائرة بين اهل العراق في جميع اطرافه لا يُستثنى منها الّا عادة واحدة وهي الاجتماع والتنزه عند ابواب سور المدينة فان الزمان قد ارخى عليها ستر الامحاق. ويبس جذرها حتى في اغلب مدن العراق. الّا في الموصل واطرافها كما يؤكده لنا الثقة الحذاق. قال المسيو فكتور بلاس (Victor Place). «شاهدت مرأى العين مرّات عديدة حاكم الموصل محتاطاً بحاشيته يقضي امور الخلق عند باب السور المفتوح من جهة نهر دجلة». والمسيو لَيَرد (Layard) يؤكد لنا ان في سميل (بلدة واقعة في شمالي الموصل) يذهب شيخ اليزيدية الى باب المدينة الكبير ليقضي بين ملته. قال الموسيو پرو: «وعلى هذا الاثر كان البابليون يسيرون في قاعدة مملكتهم ومن ذلك اسمها باب إيلو (Bab - ilu) اي باب الله ومعناه باب العدل حيث تُقضى الاشغال طبق ارادة الالهية من باب تسمية الشيء باسم الاهمّ منهُ. ومن هذا قولهم للدولة العليّة الباب العالي (٢». اه

وكانت العادة ايضاً جارية عند الاشوريين وعليه كان المساكين والمتظلمون وطالبو بعض النعم ينتظرون عند باب القلعة او عند باب القصر مرور الملك او واحدٍ من الوزراء

١) راجع Perrot et Chipiez : *Histoire de l'Art dans l'Antiquité* T. II page 440.

٢) راجع كتاب پرو Idem. T. II, p 187 et 188.

صاحب نفوذ ليعرضوا عليهِ قضاياهم . وكان يتبعهم القاعدون عن الشغل لاستماع الاخبار وتجسسها . اقول ولهذا السبب ترى اسوار المدن القديمة وابواب قصورها مزينة باجمل النقوش البديعة تدلُّ على مهارة فنٍّ دقيق وصناعة عجيبة كلُّ ذلك اكراماً للملك ولعظماء الدولة الذين تعودوا المرور بتلك المواضع . وفي التوراة ما يغنينا عن ذكر ما جاء به المستشرقون والاشوريُّون فقد ذُكر فيها انهُ : « جاء الملاكان الى سدوم عشاء وكان لوط جالساً بباب مدينة سدوم (سفر تك ١٩ : ١) » . وفي موضع آخر : « فاجاب عفرون الحثي ابراهيم على مسامع بني حثٍّ أمام كل من دخل باب مدينتهِ . . . فوجب حقل عفرون الخ . . . مُلكاً لابراهيم بمشهد بني حث وجميع من دخل باب مدينتهِ . . . (تك ٢٣ : ١٠ و ١٨) » . وفي موضع ثالث : « وصعد بوعز الى باب المدينة وجلس هناك فاذا بالوليّ الخ . . (راعوت ٤ : ١ و ٢) » . فلا ريب اذاً فيما قرَّرناه وهو ان الناس كانوا يتقاضون عند باب المدينة او عند باب الدار او عند باب القصر والشاهد الاخير بهذا الصدد ما جاء في سفر أستير اذ كانت وقتئذٍ امرأة احشورش الملك اذ قيل ان المحاورة العنيفة التي دارت بين هامان ومردكاي حدثت تحت باب قصر الملك المذكور

(العائلة والعشيرة) اذا سألت اليوم اعرابيًّا عن اسمهِ اجابك على الفور ان اسمي عباس واسم والدي خليل ثم يردفهما باسم العشيرة التي ينتمي اليها وباسم شيخها كل ذلك يحفظهُ عن ظهر قلبهِ ويدرسهُ منذ صغرهِ وربَّما سها عن تعليم اصول ديانتهِ واكتفى بما يعرفهُ عن قومهِ . والاعرابي او الكردي العراقيّ يحبُّ شيخه او اميره محبَّة تقضي بهِ مراراً الى افتدائهِ بنفسهِ وتفوق محبة ولده لعلمه ان الشيخ يُنزله منزلة عزيزهِ

ويوجد الآن في العراق عدد وافر من العشائر تائهة في البراري تعيش تحت الخيم يتنقَّلون من مطرح الى مطرح كل عائلة تلحق رئيسها والرؤساء تلحق شيخها . ومن ذا الذي سكن البرية ولم يدخل تحت راية واحدة من الشيوخ ؟ ومن واجبات كل عشيرة ان تحافظ على شرفها وتدافع عنهُ بالنفس والنفيس وعلى كل فردٍ ان يؤدّي الاكرام والاحترام الى شيخهِ وان يساعدهُ بمالهِ واولادهِ في اي وقت اراد وعليهِ ايضاً ان يزور في المواسم قبور مشايخهِ المتوفَّين وعلى كل واحد من اي عشيرة كان ان يصغي الى كلام شيخهِ ويطَّلع على خفايا واسرار تلك العشيرة ويميز اعداءها من اصحابها

واياك اياك من ان تهين اعرابيًّا ما مهما كان مسكيناً او فقيراً بل ولا امرأتهُ ولا

ولده ولا ماله . وان قتلتَ الشخص المهان فلا يتركنّك مرتاحاً والدهُ ولا اخوهُ ولا واحد من عشيرته واذا أحرجت الحال تتبعك شيخهُ مع قومهِ ويثأر منك ولو بعد اربعين سنة وفي العراق مثلٌ دارج يقول: ان الاعرابي ياخذ بثاره ولو بعد اربعين سنة من مزرد الحادثة . واذا ضاق الزمان بواحدٍ التجأ الى شيخهِ وظلَّ يأكل ويشرب في بيتهِ حتى يقوم من سقطتهِ

وهكذا كانت الامور جارية عند الاشوريين والبابليين ونستشهد هنا بكلام فرنسوا لنورمان اذ يقول: « من العجب العجاب وجود الالفة المكينة بين اعضاء عائلة او عشيرة اشورية كانت او بابليَّة . فاولئك الاعضاء يتَّحدون اسماً وجسماً ويصبحون يداً واحدة وذلك ليلزموا الغير على احترام عهودهم واشخاصهم من عبدهم حتى رئيسهم . فالهيئة الاجتماعيَّة البابليَّة اذن كانت منقسمة الى عشائر وعائلات وعلى كل عضو ان يحفظ اسم جدّ عائلتهِ او عشيرته وان يطيع رئيسهُ طاعة حقيقة وكان نظام اولئك البابليين وترتيبهم يضاهي عشيرة من عشائر حضر العرب الحالية الغنيَّة وعلى الاعضاء من ايّ عشيرة كانوا ان يذكروا اولاً اسماءهم الشخصيَّة فاسم آبائهم فاسم العشيرة المنتمين اليها (١) . »

(العبوديَّة) لقد بلغ الاشوريون والبابليون من رفيع التمدن درجة زاهرة زاهية يعترف لهم بها العلماء المستشرقون الواقفون على آثارهم . ومع كل ذلك لم يخلوا قطّ من نقيصة باهظة ثقيلة بحق الانسانيَّة . ألا وهي العبوديَّة . كان اولئك القدماء يبيعون ويشترون العبيد بيضاً كانوا او سوداً وهم الاسرى الذين تجابههم ملوكهم في كل منة إثر انتصاراتهم . ولقد سبق منا القول ان الملك كان يوزّع الاسرى على كل عشيرة وامير كلٌ حسب استحقاقه . واذا زاد العدد المحدود في بيوتهم عرضوا البقية من اولئك الاسرى للبيع بالمزايدة . وكان في كلٍّ من مدنهم وارباضهم محل خصوصي لذلك يذهب اليهِ الراغبون في مشترى العبيد . وعلى قدر ما يكون العبد الاسير جميل المنظر سَهُل على سيده بيعهُ وكانت الشريعة تسمح للبابليين ان يتزوجوا البنات الاسيرات بلا مانع ولا رادع . وربَّما كان كلام هيرودوتس عن بيع البنات على وجه الاطلاق هو خاصٌ عندهم ببيع الاسيرات منهنَّ وليس بيع البنات البابليات الحقيقات (راجع المجلَّد الثاني من كتابهِ)

(١) Lenormant T. V, p. 86 et 87

وفي متاحف اوربّة للعاديّات نصّ بمشترى وصيفة عُدّت من جملة نساء المبتاع ودونك مؤداه: « لقد اشتريت الأمة السماة طاوة حسينة (Tawat Hasina) بقيمة تساوي ستّة عشر درهماً من الفضة على يد امرأة مصريّة اسمها نيتكريس التي اهدت تلك الوصيفة الى ابنها تاكوس بفرصة زواجه وذلك لكي تكون من جملة نسائه (١

وفي تلك الأيام كانت قاعدة تجيز للواحد ان يستبدل عبده بعبدٍ آخر والشاهد على ذلك ان العلّامتين اوپير ومنان قد وقفا على نصّ عاديّة بهذا المعنى ومن يشكّ فيه فليراجع كتابهما الصفحة ٢١٢ (٢

ومما زاد في الطين بلّةً هو ان الاشوريين مع ارتقائهم في التمدن كانوا يعاملون الاسرى العبيد معاملة الكلاب. من ذلك انّهم كانوا يعلّقون في رقاب العبيد قطعة من الفخّار اسطوانية الشكل مكتوب فيها اسم العبد واسم سيده واغرب من ذلك انهم كانوا يدوّنون الغاية التي لها اتخذه سيده حتى اذا أبق العبد استردّه للحال صاحبهُ

والآن في متاحف العاديّات البريطاني سبع عشرة اسطوانة من الفخّار الصلب كلها مثقوبة وفيها محفورة اسماء نسوان والغاية التي لاجلها اتُخذنَ ومن المؤكد ان تلك النساء كُنّ بابليات الجنس قد سُبينَ الى بلاد اشور بعد افتتاح سرجون بلاد بابل اذ كان ملكها مردوخ باليدين (Marduk- pal-iddin) وهاك نصّ واحدةٍ منها: « المرأة هالة (Halat) اشتراها مارنزيه (Marnarih) في شهر شباط من السنة الحادية عشرة من ملك مردوخ باليدين ملك بابل ». وظلّت هذه العادة الخشنة (اي تعليق اسم العبد الخ) جارية حتى عند الرومانيين ولم يزل بعض القطع منها محفوظة في متاحف اوربّة » اه

هذا وكان من اللازم اللازب على مشتري العبيد ان يتسلّم من البائع ورقة البيع وان يوقّع فيها اسماء عدّة شهود حذرًا من التقلّب في الصفقة. وكانت الشريعة تسمح للعبد ان يحرّر نفسه بان يدفع مبلغاً من الدراهم. والبرهان على ذلك ان الموسيو لنورمان قد وجد في عاديّة ما مؤداه: « لقد دفع (اي العبد) دراهمَ تحريره (٣ »

---

١) راجع Oppert et Menant : *Documents juridiques*, p. 223

٢) راجع الكتاب الصفحة ٢١٢ (*Id.* p. 212)

٣) F. Lenormant: *Etudes Accadiennes* T. III p. 6

قلنا فوق هذا ان البنات المستعبدات كنّ يصبحنّ نساء حقيقيات لسيدهنّ وعليه فكثيرًا ما كان العبيد يفوزون ايضاً بدرجات سامية في الهيئة الاجتماعية البابلية الاشورية وذلك اما لجمالهم الطبيعي او لذكائهم الغريب او لخدمة يقضونها بمهارة عجيبة او اخيرًا لتضلّعهم من بعض العلوم او من بعض الصنائع كما توصّل دانيال اليهودي الى درجة حاكم على احدى مقاطعات بابل في عهد الملك نبوكدنصّر والملك بلشاصّر

ومن الامور الجارية في ذلك العصر هو ان العبد يؤجّره سيده لمدّة معلومة وذلك بان يدفع المستأجر مبلغاً كافياً من الدراهم. وتفكهةً للقرّاء نأتي بترجمة سند يتعلّق بمشترى أمة اسمها اربيل صرّاك (Arbail-Sarrak): ٥ خاتم بَلْ آهي صُو (Bel-ahi-su) ابن مردوخ أيوى (Marduc-abua) صاحب المرأة الماعة وهي اربيل صرّاك جارية المذكور بل آهي صُو ان كِصر اشور (Kicir-Assur) المزارع ومن حاشية الملك قد اشتراها من بَل آهي صُو بقيمة فضة تساوي اليوم ٣٣٧ فرنكاً. ان هذه المرأة قد بيعت والفضة قد دُفعت اما فسخ هذا السند والرجوع عن المبيع فهما غير قابلي الوقوع. وفي اي وقت يرغب بَلْ آهي صُو واولاده واحفاده في فسخ هذا السند يجب عليهم حينئذٍ ان يردّوا الفضّة المثل عشرة امثال وعلى هذه الصورة يبطل السند وينحلّ التملّك. وكان الشاهدون على ذلك سبعة عشر شخصاً. حُرّر في اليوم الثاني من شهر شباط في عهد الوالي بِشْسار اشور امام الرئيس كِرنبو (Kicir-Nabu) اه (١)»

وظلّت العبودية جارية مجراها القديم حتى في أيام الخلفاء العباسيين لا بل في أيام سلطاننا الحالي السلطان الاعظم عبد الحميد خان الذي امر بازالة النخاسة. فاسألك ناشدتك الله ألم تحضر في قوقاس سوقًا يعرضون فيها بالمزايدة بناتٍ وصبيانًا. أرَ ما جُبتَ بلاد العراق او جرّأتَ ما يفعل اكراده وأعرابه لمّا يشنّون الغارة على اعدائهم انهم بعد انتهائهم من النزو يجرّون وراءهم ما عدا الاسلاب والغنائم جماعاتٍ من البنات والصبيان يعرضونها للبيع او يستعبدونهم او يتبنّونهم ولذلك ترى كثيرين من اولئك الاسرى يصبحون بعد مرور الأيام وكرور الاعوام حكاماً او رؤساء قوم او نحو ذلك

واذا بحثت عن السبب الذي يتناقص لهُ عدد الحبشة واليزيدية والنساطرة ترى

(١) راجع Wai, III, pl 46, n° 1 = Oppert et Menant: *Document juridiques* p. 201

بيع ما يوسرون منهم هو من الاسباب العظيمة الموجبة لذلك النقصان

وفي بغداد والبصرة وسائر العراق قواعد تُفرض على بيت احد العروسين ان يقدم جارية سوداء او حبشية تمشي وراء جهاز العروس لكي تخدمها فيما بعد. واذا كان العروس هو الذي يهدي تلك الوصيفة فيجوز لهُ ان يتزوجها. وعلى المشتري ان يتسلَّم من البائع ورقة الجارية فيها مسطور اسمها ولقبها (كقولك انها زنجيَّة او حبشيَّة او مصريَّة الخ) وقيمة مشتراها وعمرها الخ. وينتهي السند بعدة خواتم للشاهدين ولم يزل سعر العبيد على تلك الحالة كما كانت في القديم اي من الخمسة عشرة ليرة الى الخمسين بحسب اصل الامة فان سعر الحبشيَّة هو اغلى من سائر الاسعار وادناها الزنجيَّة

وعلى العبد ان يخدم سيده طول حياته ولكن كثيرًا ما تراه يهرب تحت جنح الليل فيخسر حينئذٍ سيده العبد وسعره اذ الحكومة لا تقبل شكوى على العبد كما ان كثيرًا ما نرى العبد الامين يخدم في بيت صديق لسيده ولا يجسر السيد استرجاع عبده غصبًا عنه حذرًا من ان يُلحق ضررًا ببيته وكم وكم من الجاريات اللواتي سرقنَ سيدهنَّ او حرقنَ بيته نكايةً به

هذا واذا مرض واحد من البيت ينذر مرارًا السيد او السيدة تحرير عبدهما بعد شفاء عزيزهما فاذا تمَّ ذلك سلَّما الى العبد ورقة التحرير مع ورقة مشتراه واطلقاهُ في حال سبيله. واذا اراد رجلٌ ان يُجيزَ صديقه او عميله أهداه عبدًا او جاريةً كما كان يجري عند البابليين

قلنا فُرَيق هذا اذا حظيتِ الامة عند سيدها تزوَّجها اذ تُجيز لهُ الشريعة بذلك واذا رزقهُ الله منها ولدًا ورث هذا مع ابن الحرَّة على السواء ولهذا السبب كثيرًا ما تصادف في عراقنا عبيدًا عائشين بكل سعةٍ ورفاهيةٍ او حاصلين على املاكٍ فسيحة او متوظفين في وظائف متعددة او اخيرًا فائزين بدرجاتٍ رفيعة في الهيئة الاجتماعيَّة ويحسنون التكلم ويحفظون كسائر الشعوب المتمدنة (البقيَّة لعددٍ آخر)